6

ثمن الكنز !

قال سندباد :

لقد ظفرتُ بالكنز ولكنى فقدتُ شيخي؛ فما أفدح الثمن وأكبر الخسارة!

قلت هذا لنفسي وأنا واقف على الشاطئ أرقب المدَّ الزاحف، وقد غاب الشيخ وحنظل عن عينيَّ وابتلعهما البحر في جوفه العميق ...

وتمنيت في تلك اللحظة إنني لم أظفر بالكنز ولم أفقد الشيخ؛ ولعنتُ حنظل والأيام التي جمعتني به!

ثم بدا لي أن أسرع إلى أصحابي فأخبرهم، لعل لهم حيلة في إنقاذ الشيخ؛ ولكن أين هو لينقذوه، فإني لا أرى شبحًا ولا ظلًا، وليس أمامي إلا الأمواج المتلاطمة تحجب كل ما وراءها من صور الأحياء والموتى!

ونسيت من شدة الحزن أن أحمل كنزي، وكنت قد وضعته إلى جانبي على الشاطئ لأستريح من حمله لحظات، فلم أتذكره إلا حين قطعتُ نصف الطريق إلى أصحابي، ولكني لم أكد أهمُّ بالعودة إليه لآخذه حتى طرق أذنيَّ عواء الذئاب، فأخذت أعدو خائفًا وقد نسيت الكنز والشيخ وكلَّ ما كان يدور في رأسي من الخواطر، فلم يبق في نفسى شيء غير الرغبة في النجاة بحياتي . . .

ووصلت إلى أصحابي وجسمي يتصبَّبُ عرقًا؛ فلم أكد أستشعر الأمان برويتهم حتى ارتميت بينهم وأنا أقول : الذئاب!

فسمعتُ صوتًا يهتف بي من جانبي : أين الكنز يا سندباد ؟

فنظرت إلى محدثي فإذا هو الشيخ نفسه؛ فلم أستطع لدهشتي جوابًا ولا تحريك شفة . . .

وعاد الشيخ يسألني مُلحًّا : أين الكنز ؟

قلت : إنه هناك على الشاطئ!

فأجابني منكرًا : تركته لحنظل يأخذه غنيمةً باردة؟

ثم اندفع يجرى وهو يقول : والله لا يأخذه ولو هلكتُ دونه!

فرأيتني أجرى وراءه بلا وعى وأنا أقول مثله : والله لا يأخذه !

وأخذ أصحابنا يجرون وراءنا . . .

ووجدنا الكنز حيث تركته، فحمله الشيخ فرحًا، ثم عدنا؛ وكان عواء الذئاب يطرق آذاننا من بعيد، ولكنى لم أكن خائفًا، فقد كان معي "نمارید" كثيرون لا تجرؤ الذئاب العاوية على الظهور لهم !

ووصلنا إلى حيث كنا، فهممنا بالجلوس؛ ولكن الشيخ صاح بنا : لقد انتهت مهمتنا فلا بقاء لنا؛ هيا إلى الزورق!

وكان الزورق على مقربة منا؛ فقصدنا إليه واتخذنا مقاعدنا، وأخذ أبو الإسعاد يجدف مبتعدًا عن الشاطئ ..

وكان المدُّ في أعلى درجاته، والأمواج تتواثب حوالينا حتى تكاد تبتلعنا، وأبو الإسعاد مجدٌّ في التجديف لا يكاد يفكر في شيء من مخاطر هذه الرحلة الجريئة في ظلام البحر الهائج؛

وكان الشيخ إلى جانبي، وقد أسند ذراعه إلى الكنز الذي كاد يفقد حياته في سبيله؛ فتذكرت المعركة العنيفة التي كانت تدور منذ ساعة بينه وبين حنظل تحت الماء؛ فقلت له : بالله يا سيدي كيف نجوت؟

فنظر إليَّ نظرة الحنان، وأجاب : أخفتَ عليَّ أن أغرق يا سندباد؟ نحن حيتان البر يا سندباد، فلا تُغرقنا أمواج البحر!

قلت : ولكن كيف نجوت وسبقتني إلى ذلك المكان؟

قال : إنني لم أكد أطمئن إلى نجاتك حتى أفلتُّ، من قبضة حنظل ثم أخذت أسبح تحت الماء متجهًا إلى حيث كان أصحابنا، وتركتُ حنظل يسبح في اتجاهك؛ إذ كان الحصول على الكنز كلَّ همه . . .

قلت : هل كان يتبعني؟

قال : نعم، ولكنه فَقد أثرك لأنك وقفت طويلًا على الشاطئ، ثم اتخذت طريقًا غير طريقه؛ فنجوتَ ونجا كنزك.

قلت : إنه كنزك يا سيدى؛ فقد كدت تبذل في سبيله روحك!

قال : صَهْ، لا أريد أن يسمعك أحدٌ تقول هذا . . .

وكنا قد وصلنا في تلك اللحظة؛ فرفع أبو الإسعاد مجدافه من الماء وتهيَّأنا لمغادرة الزورق إلى البر . . .

ثم أخذنا طريقنا إلى فندق سندباد . . .

وقضينا ليلتنا بالفندق، وكان نومنا عميقًا ولكنه مزدحم بالأحلام فلما أشرق الصبح تهيَّأنا للرحيل؛ إذ كان بقاؤنا بعد اليوم في هذه المدينة محفوفًا بالمخاطر!

قال أبو الإسعاد : أتتركوني لهذه المخاطر وحدي وتذهبوا؟

قال الشيخ : بل تصحبنا إلى تمام رحلتنا إن أردت . . .

قال أبو الإسعاد : قد أردت فهيَّا . . .

" لقد نجونا من شر تلك المدينة الملعونة، ومن كيد حنظل وأشرس وظفرنا بالكنز؛ فلنذهب إلى حيث يشاء الله، مبتعدين عن تلك المدينة وما فيها ومن فيها؛ فليس بنا حاجة إلى البقاء بها بعد اليوم . . ."

قال الشيخ هذا؛ فقلت له : ولكن لي في المدينة فندقًا مشهورًا باسمي، اشتريته بمالي، وبذلتُ في العناية به كل جهدي؛ فلمن أتركه بعدي؟

قال ضاحكًا : يكفيك أن يبقى اسمك في المدينة منقوشًا على مدخل ذلك الفندق، ليكون تذكارًا للأيام التعسة التي قضيتها في المدينة؛ وقد حصلت من هذا الكنز على أكثر ممن دفعتَ ثمنًا لذلك الفندق فاتركه لصاحبه ولا تكن طماعًا !

وكان بودِّي أن أبقى في المدينة أيامًا حتى أودِّع من عرفت فيها من الأصحاب، وأسوِّي ما كان بيني وبين بعض أهلها من الحساب، ولكني انقدت للشيخ طائعًا.

وكان المركب الكبير مرسيًا على الشاطئ، فركبناه، ثم حللنا قلوعه وأدرنا دفَّته، فانطلق بنا في عرض البحر سريعًا؛ إذ كانت الريح مساعدةً والجو صحوًا، فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى ابتعد الشاطئ عن عيوننا جميعًا فما نرى إلا الماء والسماء . . .

ولم أكد أملأ صدري من نسيم البحر العليل، حتى ثقلت جفوني وغلبني النوم، فاستلقيت في مكاني ورحت في نوم عميق . . ...

واستيقظتُ قُبيل العصر منشرح الصدر، فاستويتُ جالسًا بين أصحابي، ثم قلت : ألا نأكل؟ فإنني أشعر بجوعٍ شديد!

فأجابني الشيخ : بلى سنأكل جميعًا؛ وسيكون طعامنا شهيًا هنيئًا!

ثم أشار إلى بعض أصحابنا فقاموا، ثم عادوا وبين أيديهم طعام، فابتدرْنا إليه جميعًا ونحن نمرح ونضحك؛ وكان كما قال الشيخ طعامًا شهيًّا هنيئًا . . .

فلما فرغنا من الطعام غسلنا أيدينا من ماء البحر، ثم استدرنا حلقة نتبادل الأحاديث والذكريات حتى مالت الشمس للغروب، فانتصب الشيخ وافقًا، ثم أظل عينيه بكفه وهو ينظر نحو الأفق، وعاد إلينا يقول : إذا ظلت الريح في اعتدالها فإننا سنصل إلى جزيرة النسانيس قبل ظهر الغد!

قلت : جزيرة النسانيس؟ وما حاجتنا إلى النسانيس وجزيرة النسانيس؟

قال : لا حاجة بنا إليها، ولكن بها إلينا حاجة لن تنالها!

فقلقت وقلت : وأي حاجة للنسانيس عندنا ؟

فالتفت الشيخ إلى أحد أصحابنا وقال له حدِّثه يا باقر . . .